موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب باوي

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الثانية

www.coptology.com

Coptology

ϨⲁⲛⲱϢ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الثانية

دكتور

جورج حبيب باوي

٢٠٠٩

www.coptology.org

التجسُّد

هو الأساس الذي بُني عليه الصليب والقيامة والصعود، وحدد لنا المصير الأبدي للإنسانية

الأساس التاريخي الذي حاولنا أن نضعه في الإكليريكية:

يعرف كل الذين درسوا معنا في فرع الكلية الإكليريكية بطنطا أننا حاولنا قدر الجهد، وفي إطار ما سمحت به الظروف أن نضع المنهج الأرثوذكسي الصحيح لدراسة اللاهوت. ولقد حرصنا على أن تجيء الدراسة المنهجية مبنية على أساس لاهوت الإسكندرية، وكان سبيلنا إلى ذلك:

أولاً: الكتب الدراسية، مثل تجسد الكلمة، الذي وُضِعَ حسب عبارات مؤلفة نفسه – وهو القديس أثناسيوس – من أجل تقديم الإيمان وشرحه، وربما – كما يبدو من الموضوعات وطريقة العرض نفسها – للموعوظين. ولذلك لم يتعرض القديس أثناسيوس للعشاء الرباني، عن عمد، بينما أبرز المعمودية؛ لأن العشاء الرباني كان ضمن "التعليم السري" الذي لا يذاع لغير المؤمنين حسب ترتيب الكنيسة الأرثوذكسية.

كذلك قمنا بترجمة كتاب رسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون عن الروح القدس، ثم ترجمة كتاب القديس باسيليوس عن "الروح القدس". وإذ توفر لدينا كتابين عن عمل الروح القدس، فقد أصبح الأساس التاريخي للتعليم الخاص عن الأقنوم الثالث

ثابتاً.

ثم أضفنا إلى كتاب تجسد الكلمة، ترجمة كتاب "شرح تجسد الابن الوحيد"، ثم كتاب "المسيح واحد"، ثم مقالة "شرح قانون الإيمان". وكانت هذه هي أول كتب كاملة للقديس كيرلس السكندري تُنشر منذ القرن الخامس.

ثانياً: لم يكن لدينا كتاب واحد - ولا زال الوضع كما هو – يضع العقيدة الأرثوذكسية على أساس لاهوتي آبائي وتاريخي صحيح، ولذلك كانت نقطة البداية هي العودة إلى ذات الموضوع الذي شغل بداية كتاب تجسد الكلمة، وهو خلق الإنسان على صورة الله. ولذلك أصدرنا دراستنا عن: "الإنسان صورة الله"، وقد نُشرت مطبوعة بالآلة الكاتبة في طنطا، ثم أتبعناها بدراسة عن "العذراء حواء الثانية". ونشرنا "رسائل القديس أغناطيوس الأنطاكي"، ثم دراستنا عن "شرح القداس الباسيلي"، وكتاب "المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي"، ثم جاء دور كتاب "المعمودية في القرون الخمسة الأولى"، ثم نشرنا "حوارٌ عن الثالوث"، ثم دراستنا عن "هل تؤمن المسيحية بإله واحد؟".

ثالثاً: عندما صدرت دراستنا عن "التسليم أو التقليد الكنسي"، طلبت من نيافة الأنبا يوأنس أن يكلف أحد كهنة المحلة الكبرى بالتدريس، وكان خريجاً من خريجي الكلية الإكليريكية – القسم النهاري – فأخذ المذكرة وأعاد كتابتها بروح "كُتَّاب الأنبا رويس" على طريقة أن لكل دين تقليد (وإن كان هذا في حد ذاته صحيحاً)، ولذلك كما يوجد تقليد في اليهودية كذلك يوجد تقليد في المسيحية.

وانزعجت؛ لأن دور التقليد الكنسي في المسيحية ليس هو نفس الدور في الديانات الأخرى. وتبين أن التسليم الكنسي أو التقليد هو موضوع غائب تماماً من الوعي القبطي المعاصر.

إضافة إلى ذلك، فإن طريقة الكتابة وجَّهت النظر إلى ضرورة إعادة اكتشاف

موضوع غائب تماماً عن الوعي القبطي المعاصر، كان الأب متى المسكين قد لمحه وأشار إليه في لطف ورقة، جلبت عليه سيل من الشتائم والإهانات. هذا الموضوع هو أن **التسليم الكنسي** يختلف اختلافاً تاماً عما يسمى بالتقليد في أي دين آخر، ويتبدى هذا الاختلاف بصفة أساسية في:

١- إن التسليم الكنسي هو مجال استعلان قيادة الروح القدس في كرازة وتعليم القديسين. هذا غير معروف بالمرة في اليهودية والإسلام.

٢- إن التسليم الكنسي يعبِّر عن اتساع مجال الرؤيا أمام تحدي الهرطقات بحيث لا يقف التعليم عند وضع مصطلحات لاهوتية مثل *Homo - ousios* بل إلى وضع رؤية شاملة تقوم، ليس على استخدام كلمات معينة، بل على تحديد دائرة الإيمان على أساس الخلاص نفسه. بكلمات أخرى: لا يقتصر الدفاع عن إلوهية الابن – كأحد دعائم التدبير – مثلاً على استخدام تعبير "الواحد مع الآب في الجوهر" أو غيرها، بل اعتبار أن وحدة جوهر اللاهوت في الثالوث نفسه هي مصدر خلاص الإنسان نفسه، الخلاص الأبدي.

٣- إن التسليم الكنسي هو أيضاً التقوى والقداسة الأرثوذكسية التي لا تسمح بفصل الإنسان عن الله الثالوث، أو بوضع التعليم عن الأسرار، لا سيما أسرار الانضمام إلى جسد المسيح، كرؤيا عقلية فلسفية، بل كرؤيا مستيكية *Mystical* هي عمل الروح القدس في "استنارة الإنسان"، وشركته في الحياة الإلهية (١ يو ١: ١ – ٣، ٢ بط ١: ٣ – ٤).

ولذلك عندما احتدم الجدل المرير والحاد حول قبول سُكنى أقنوم الروح القدس نفسه، كان شغل جماعة الأنبا شنودة الشاغل – وبكل أسف وحزن كان أستاذنا الفاضل الأنبا غريغوريوس هو أول من بدأ بهذا التمييز الخطير بين الأقنوم والمواهب – كان شغل هؤلاء الشاغل هو إنكار سكنى وحلول الروح القدس

والاكتفاء بالحديث عن المواهب، بل تطور تعبير هؤلاء إلى اختراع تعبير جديد "حلول مواهب"لكي يغلق هذا التعبير الطريق أمام العمل الأبدي للروح القدس هنا في هذا الزمان، وفي الأبدية أيضاً، وهو أمر ينطوي على قدر هائل من الخطورة.

هذا الإنكار ساهم – فيما بعد – في مزيد من التخبط الذي رأيناه فيما بعد؛ لأن عدم حلول الروح القدس وسكناه في النفس = ضياع الأسرار كلها، ليس المعمودية – الميرون – الإفخارستيا فقط، بل وحتى الكهنوت نفسه؛ لأن الله – عندئذٍ – لا يعود هو الذي يخدم في الكنيسة، بل بشرٌ مائتون وخطاة.

رابعاً: عندما كثر الجدل حول كتاب "الكنيسة الخالدة"، وكتاب "العنصرة"، وغيرهما من كُتب الأب متى المسكين، أصدرنا دراستنا عن "الواحد والجماعة، أساس السقوط والخلاص في العهد القديم" ليس دفاعاً عن كتاب، وليس دفاعاً عن أحد، بل دفاعاً عن حقيقة غائبة عن الوعي نفسه، وهي حقيقة "الكنيسة جسد المسيح".

غياب هذه الحقيقة، تسبب في أن يغيب عن الوعي الكنسي حقيقة أن بدايةً جديدةً قد صارت لنا في آدم الأخير عندما أخذ الرب يسوع إلى أقنومه الإلهي، الجنس البشري (ضد الوثنيين ٣: ٦٥ – ٦٦).

وهكذا بات من الواضح أننا أمام مأساة وتراجيديا أشبه بما عرفناه من المسرح اليوناني القديم؛ لأننا ما زلنا نتمسك بكل ما نعرفه عن آدم الأول ولا نريد التقدم أو التحوُّل إلى آدم الجديد أو الأخير يسوع المسيح ربنا. وهذه مصيبة كبرى؛ لأننا بالبقاء في آدم الأول نصبح في الحقيقة مرتدِّين عن الإيمان والنعمة، لا مسيحيين، رغم ما نردده من كلمات وعبارات من الكتاب المقدس أو صلوات الكنيسة.

وهكذا كان طبيعياً أن نصل – في مرحلة تالية – لإنكار شركتنا في الله، وبالتالي تفسير نص ٢بطرس ١: ٣ تفسيراً خاصاً بعيداً عن الرؤية الشاملة التي تحدد الإيمان على أساس الخلاص. فقد غاب عن بعض المفسرين – بكل أسف – أن الإنجيل

ليس تنزيلاً، ولا هو مجرد ترتيلة من التراتيل، وبالتالي هناك مسألة أكبر من شرح أو تفسير عبارة؛ لأننا تلاميذ مَن قال: "أنا الحياة"، تحكمنا الحياة وهي الشركة، ولا يحكمنا الحرف أو النص خارج الرؤية الشاملة للإيمان. وهنا يمكننا أن نسأل هذا السؤال: إن كانت كل فرص الشركة في طبيعة الله منعدمة تماماً، فكيف يمكن شرح حقيقة الحياة الأبدية كنعمة وُهِبَت لنا في المسيح يسوع؟

وإذا قلنا إن الله هو وحده الأبدي حسب جوهر حياته الفائق، وقلنا إن الإنسان وُهِبَ نعمة الحياة الأبدية في المسيح، فهل يعني هذا أنه يوجد نوعان من الأبدية، واحدة إلهية والثانية مخلوقة؟

عجباً!! كيف يمكن خلق الأبدي؟

والأعجب من هذا، إذا كان الإنسانُ أبدياً حسب جوهر حياته، ألا يكون إلهاً بالطبيعة، وبالتالي يتعذَّر طرده من الجنة؟

أمَّا الأعجب من الكل، هو أن يهاجم أحد الكتاب الشركة في الطبيعة الإلهية، ورغم ذلك يدَّعي بكل ما لديه من جرأة على الكذب والتدليس أنه يؤمن بأن الإنسان له حياة أبدية في الله بالمسيح. كيف ننال حياة أبدية – في المسيح – مخلوقة ومنفصلة عن طبيعة الحياة غير المخلوقة "الله العظيم الأبدي" (صلاة الصلح). وهذا في حقيقة الأمر هو إنكار مبطن لإلوهية الرب يسوع – الذي يصبح في هذه الحالة – غير قادر على أن يهب الحياة الأبدية الإلهية لأنه مخلوق، ولا يملكها!!!

لا توجد عقائد منفصلة عن بعضها

بالرغم من الفوائد والغنى الذي نتج عن تقسيم علوم اللاهوت إلى عقيدي – نظامي – تاريخي – دفاعي ... الخ ، إلاَّ أن هذا التقسيم في حد ذاته أضعف الرؤيا وفتَّت الوحدة العقائدية. في حين أنه – أرثوذكسياً – لا يمكن أن نفصل عقيدة

الثالوث عن التجسُّد، ولا التجسُّد عن الإفخارستيا. ولا اتحاد اللاهوت بالناسوت في أقنوم الرب يسوع الواحد عن الكنيسة جسد المسيح. كما لا يمكن فصل المعمودية عن الميرون، أو عن وحدة عمل الثالوث في خلاص الإنسان. ومَن يفصل الحياة الأبدية عن سُكنى الروح القدس فينا يجعل الإنسان أبدياً بالطبيعة أي إلهاً، وغير قابل للموت، وكأن المسيح لم يفدِنا من موت الخطية، بل من الموت البيولوجي الطبيعي!

مثال واضح من كتاب تجسد الكلمة

يؤكد القديس أثناسيوس أن تجسد الكلمة الابن هو لإعلان الآب نفسه وتقديم الإنسانية لله الآب في شخصه (تجسد الكلمة ١١: ٣). هذا الهدف هو الذي جعل الابن يبيد الموت والفساد بموته، ويرفع حكم الموت، ويعلن محبة البشر، ويجدد الطبيعة الإنسانية، ويرد إليها نعمة الصورة. كل هذا لكي يعطي لنا شركةً في حياة الثالوث. وقد عبَّر القديس أثناسيوس عن ذلك بعدة تشبيهات سوف ندرسها في موضعها، لكن عندما يختفي إعلان الآب كأحد أهداف التجسد، يصبح من السهل حصر عمل الابن المتجسد في إرضاء الآب ودفع الفدية والدين، وهي عبارات سوف ندرسها في حينها.

وعندما يغيب إعلان الآب بواسطة الكلمة المتجسد، يصبح التجسد قاصراً على عمل الرب يسوع ويختفي دور الآب، بل ومعه دور الروح القدس. ولكن القديس أثناسيوس لم يقع في هذا الخطأ الشنيع؛ لأن التجسد يعلن الثالوث:

أولاً: برد معرفة الإنسان بالآب.

وثانياً: بقبول الروح القدس في تجديد المعمودية.

ما هو سر وحدة العقائد؟

تشبه العقائد – إلى حدٍ كبير – الدورة الدموية، أو انسجام وظائف أعضاء

الجسد.

لنبدأ – على سبيل المثال، وهنا أي مثال صالح – بموت الرب يسوع على الصليب.

يستدعي موت الرب على الصليب تحديد أسباب هذا الموت. كما أن أي تعليم عن سقوط الإنسان الأول، يحدد الأرضية التي نبني عليها ما حدث على الصليب. وأي خطأ في فهم سقوط الإنسان يؤدي بالتالي إلى العجز عن فهم **موت الرب المحيي** فهماً صحيحاً.

وهذا هو التسلسل والترابط الذي تسلمناه من الآباء:

١– اختار الإنسان الأول الموت بحريته.

٢– سيادة الموت على الإنسان؛ لأنه ترك الشركة.

٣– شُوِّهت عطية الصورة الإلهية. وعندما نقول نُزِعَتْ أو فَسَدَتْ، فهذا لا يعني بالمرة أنها ضاعت تماماً، وإنما ضُرِبَتْ بالموت والفساد.

٤– ضياع نعمة الحياة الأبدية.

٥– فقدان الشركة مع الله الثالوث.

هذا يستدعي كما سنرى من العرض الدقيق الذي يقدِّمه المعلم السكندري أثناسيوس:

١– احتياج الإنسان إلى الخالق الكلمة الذي خلقه من العدم لكي يرد إليه نعمة الصورة؛ لأن الإنسان كان منذ البدء شريكاً للكلمة يتبعه مثل تبعية الظل للنور (تجسد الكلمة ٣: ٣).

هنا بشكل خاص يصبح تحديد الحاجة إلى إلوهية الكلمة هو احتياج إلى من يملك رد ما فُقِدَ، أي إلى الخالق ذاته. هنا بالذات تفترق الطرق، طريق الكنيسة الأرثوذكسية، عن طريق الكنيسة الغربية لا سيما بعد ظهور القديس أنسلم (١٠٣٣

– ١١٠٩م).

٢– لم يكن السقوط إهانةً لله، وبالتالي لا يحتاج إلى من يرد له كرامته، أو يدفع له الفدية.

٣– كان السقوط **تحولاً في كيان الإنسان من الحياة إلى الموت. من صورة الله إلى صورةٍ لنفسه،** وهو ما سوف نناقشه على مهل وفي أناة في المحاضرة التالية. ولعل القارئ قد لاحظ أن القديس أثناسيوس يبدأ أولاً بخلق الكون، وثانياً بخلق الإنسان.

الإنسان هو نقطة البداية، وهو الموضوع الأصلي والجوهري. ليست المشكلة هي مشكلة الله، بل هي مشكلة الإنسان. ولأنها مشكلة أو مصيبة الإنسان، بل والكون كله، فقد كان على الخالق أن يتدخل، وأن يعيد ما ضاع وفسد.

ومرةً ثانيةً تفترق الطرق.

الطريق الأول: هو محبة الله الخاصة للجنس البشري الذي وُهِبَ أن يكون مخلوقاً على صورة الله. وتدخُّل الله هو تدخُّل الخالق "الحر" و"كلي الصلاح"، ولاحظ أن أثناسيوس يضع هنا قاعدة لاهوتية هامة مؤداها:

"الله كلي الصلاح لا يبخل بشيء" (تجسد الكلمة ٣:٣).

تدخُّل الله لم يكن عن إصرارٍ فَرَضَه قانونٌ أو شريعة، بل كان تدخُّل الصلاح والمحبة. وإذا فشلنا في فهم هذه النقطة بالذات، نكون قد سرنا في الطريق الثاني، وهو الطريق الذي يضع الشروط لتدبير الفداء أو الخلاص على النحو الذي نراه عند دائرة الإكليروس القبطي المعاصر المحيط بالأنبا شنودة، وبالتالي فإن تشوه الإيمان نفسه يصبح ظاهراً لمن يعرف أن يرى:

أولاً: ليس لدى الله أي التزام أو ضرورة يخضع لها الله نفسه تحتم عليه أن يعمل. هو ليس مسئولاً أمام إله آخر ولا أمام نظام أو حتى أمام الخليقة نفسها.

ثانياً: إذا كانت طبيعة الله هي المحبة والصلاح، فإن المحبة لا تعمل إلاَّ بالحرية. ولو فُرِضَت على المحبة أي قيود – مهما كانت – فقدت حركتها الطبيعية في العطاء.

ثالثاً: لم ينتبه الذين فرضوا شروطاً على الله لكي يفدي الإنسان أنهم أعادوا إلى المسيحية التعليم اليهودي بوساطة الشريعة؛ لأن الشريعة لا تعني إلاَّ الشروط والقانون، ولذلك رفضوا موضوع التبرير بالإيمان، ولهذا صدرت مقالات تهاجم الأب متى المسكين باسم "الناموس والأعمال"، وهكذا وقع الأنبا شنودة ودائرته في خطأ تصوُّر أن الإنسان يتبرر "بالإيمان والأعمال"، وهو ما لا وجود له في العهد الجديد، ولا عند الآباء.

إن سلوك الإنسان المقدس لا يعطي له الغفران أو القبول، بل فقط يحفظه في النعمة والشركة.

وحتى إخوتنا في الكنيسة الإنجيلية، عندما أبرزوا موضوع "التبرير بالإيمان"، فرضوا على موت الرب أن يصبح حدثاً تاريخياً غاب في أعماق التاريخ، فقد صدر حكم البراءة منذ ٢٠٠٠ سنة تقريباً وما على الإنسان إلاَّ أن يصدِّق ويقبل، ولم يعد للصليب نفسه أي وجود في الحاضر إلاَّ من خلال عقل المؤمنين، أي أنه أصبح فكرةً عقلية. وهذا يذكِّرني بحديث طويل مع صديق معمداني دعاني للوعظ في كنيسته، وعندما رشمت الصليب قبل العظة قال لي في ثقة مفرطة بعد العظة وأمام الشعب: "أنت تضع علامة اللعنة على نفسك"، وكان ردي حاسماً: إن الصليب هو علامة المصالحة؛ لأن الرسول يقول: "إن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه وواضعاً فينا خدمة المصالحة" (٢كور ٥: ١٨) وأُسقِطَ في يد الرجل، وطبعاً لم يدعُني للوعظ مرةً أخرى، وهذه خسارته هو وشعبه.

خلف فكر هذا الرجل، عبارات الرسول بولس "المسيح صار لعنة" (غلا ٣: ١٣). ولكن يجب أن يكون واضحاً أنه لم يتحول إلى لعنة. هذه ليست مسألة تفسير؛

لأنه لم "يَصِر موتاً" عندما مات على الصليب. و لم "يَصِر قبراً" لأنه دُفن في القبر. لم يحدث تحولٌ في كيان الرب، وإنما قَبِلَ الربُ كل هذه لأجلنا، وليس لأجل إرضاء الله لأنه هو الله.

مكانة ومقام الكلمة

لقد شدد القديس أثناسيوس على مكانة ومقام الكلمة لكي يؤكد:

١– محبة الكلمة للإنسانية التي جعلته يعطي نصيباً للإنسان في قدرته العاقلة.

٢– العلاقة الخاصة بين الكلمة والآب.

وكلتا النقطتين تمثل بداية التسلسل:

١– الكلمة خالق، ولذلك هو لا يقبل أن يرى انحلال وسقوط الخليقة. كان بالأولى ألاَّ يخلق؛ لأن ترك الخليقة يعلن عدم صلاح الله الكلمة، وبالتالي عدم صلاح الآب نفسه.

٢– إن ما يذكره القديس أثناسيوس عن الكلمة، إنما يذكره عن الآب أيضاً، ليس فقط بسبب وحدة الجوهر، وإنما لأنه في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة لم يكن قد وُلِدَ تعليمٌ يحصر الخلاص في الابن وحده. لقد كان الثالوث هو الأساس الأبدي لكل ما يقال عن الإنسان والله والكنيسة .... الخ.

٣– الكلمة لم يكن له جسد، فهو الإله الذي قَبِلَ التجسُّد بسبب محبته للبشر. وعندما أخذ الجسد من العذراء وبدون زواج أكَّد أنه الإله الخالق (تجسد الكلمة ٨: ٣). كما أكد أثناسيوس على ثلاثة أشياء تعبِّر عن الملامح العامة لسر الإفخارستيا، وكنا قد أشرنا من قبل إلى أننا نأخذ المسيح الحي من الأموات في الإفخارستيا، نأخذه غالباً لا مغلوباً، فادياً لا ثمناً يُدفع للآب، مخلصاً لا خاطئاً يقع تحت طائلة العدل الإلهي، وهنا بالذات تظهر ملامح "السر المجيد" فهي:

أولاً: المسيح هو الحياة، ولذلك بعد أن قَبِلَ موت الجسد، أحيا الجسد وقدَّس الجسد، لأنه من الصعب جداً على من له بصيرة روحية أرثوذكسية أن يقبل أن إتحاد أقنوم الكلمة بالجسد لم يأتِ بأي تغيير في الجسد، وكما يظن السذج والذين يحاربون – بكل ما فيهم من بغضة وعداوة – الإيمان بالشركة، بأن الجسد ظل كما هو، أي قابلاً للموت حتى بعد القيامة، فطبيعة الأجساد الإنسانية هي عدم البقاء، لكن ذلك الذي أقام الموتى بدد فساد الجسد، بل وجعله بعد القيامة غير قابل للآلام الجسدانية بالمرة لأنه قام بغير فساد.

ثانياً: جسدٌ لا يقبل الانقسام رغم أنه يوزَّع على المتناولين؛ لأن الانقسام هو جزء من الموت. وصلاة القسمة هي صلاة خاصة بتوزيع الأنصبة، أو الميراث، وليست لتقسيم جسد الرب، بل لتوزيع ذاك الذي يجمع كل أبناء الله المتفرقين إلى واحد.

ثالثاً: جسد مجده (فيلبي ٣: ٢١)، وهو جسد لا يفسد، يُطهِّر المتناولين، يُعطى "غفراناً وحياةً أبديةً لمن يتناول منه"، حسب صلوات التقوى الأرثوذكسية. ولم يسأل الذين يقاومون الأرثوذكسية من داخل الكنيسة ويحاربونها بسلطان كهنوت أعطوه لأنفسهم، كيف يعطي تناول جسد الرب ودمه الحياة الأبدية إذا كان جسداً طبيعياً لم يأخذ أي شيء من صفات اللاهوت، أي لم يصبح جسداً محيياً، أو كما يقول أغناطيوس الأنطاكي "ترياق عدم الموت" (أفسس :٢٠)، فكيف يعطي جسد الرب الحياة الأبدية لمن يتناول منه إن لم يكن هذا الجسد قد تألَّه، أي اشترك في طبيعة الحياة الغالبة التي هي طبيعة الله الكلمة؟

الميلاد من العذراء والمعمودية في نهر الأردن:

إذا كان الرب قد وُلِدَ من العذراء بالروح القدس، أي كوَّن الروحُ القدس جسده، فلماذا احتاج الرب في تدبير الخلاص أن يعتمد؟

من الصواب أن نقول إن معموديته كانت الظهور الإلهي للثالوث، ولكن هذا الظهور لم يكن لأجل الرب ولا لأجل الآب، بل لأجلنا. وهكذا عندما يقول أثناسيوس إن الرب اعتمد واغتسل في نهر الأردن، كنَّا نحن الذين اغتسلنا فيه، وعندما مُسِحَ كنَّا نحن الذين مُسحنا فيه، وعندما تقدَّس كنَّا نحن الذين تقدَّسنا فيه وبه، فإن هذا ضروري جداً لفهم ثلاث عقائد لا يمكن تقسيمها:

أولاً: الميلاد من العذراء بالروح القدس والذي أدخل الروح في تكوين الخليقة الجديدة. بهذا نقل الرب يسوع الجنس البشري من آدم الأول إلى ذاته، إلى أقنومه لكي نولد نحن به وفيه كما وُلِدَ هو. ومن يسخر من عبارة "بيت لحم مسقط رأس البشرية المفتداة" فهو يسخر من تحوُّل الإنسانية من آدم إلى المسيح؛ لأنه لم يستوعب سر آدم الجديد أو الثاني.

نحن نولد بيولوجياً من آدم الأول وهذا – كما هو معروف – بالتناسل. هذا يؤدي إلى الموت، لكننا نولد في المسيح ميلاداً جديداً جاءت به البداية الجديدة للجنس البشري، ميلاداً روحياً يفوق الميلاد البيولوجي من الماء والروح وفي سر المعمودية، هذا هو طريق الحياة. ميلاداً بدون زرع بشر أو إرادة رجل وامرأة في الزواج لا دخل للجسد فيه ولا شأن للإرادة الإنسانية به؛ لأنها عاجزة. ولأن الميلاد من فوق، فهو يخضع لما نعرفه عن الملكوت، وهو عمل الروح القدس.

ثانياً: مسحة الرب بعد معموديته، يقول عنها الإنجيلي يوحنا: "أما أنتم فلكم مسحة من القدوس .." (١يوحنا ٢: ٢٠). لقد مُسحنا فيه ومسحتنا منه؛ لأنه هو رأس الإنسانية الجديد، ولذلك كان صعباً علينا أن نقبل تمزيق الروح القدس إلى أقنوم ومواهب؛ لأن الرب يسوع لم يُمسح لكي ينال مواهب الروح، بل نال لأجلنا "روح البنوة". وصار من الواضح أن العبث في عقيدة أساسية، وهي نقل الإنسان من آدم الأول إلى المسيح هو نقلٌ من العبودية إلى البنوة. وهي ليست علاقة شرفية كما يقول

مَن يرددون كلام الأنبا شنودة دون وعي، ودون أن يدركوا أنه عندما يقول إن التبني كان معروفاً في العهد القديم، إنما هو يضرب التبني ذاته لأن الفرق بين عهد الشريعة وعهد النعمة ليس واضحاً في ذهنه (رو ٩: ٤). والمشكلة ليست في أن التبني كان معروفاً في العهد القديم؛ لأن هذا صحيح؛ لأن الله يقول عن إسرائيل "ربيت بنين ..." (أش ١: ٢)، ولكن هل ما كان معروفاً في العهد القديم هو ما أخذناه من المسيح في العهد الجديد؟ لماذا هذا المسخ والتخبط؟ هل كان في العهد القديم معمودية مثل معمودية الإنجيل؟ هل كان التبني لكل البشر أم لبني إسرائيل فقط؟ هل كان روح البنوة لكل الشعب أم للملوك والأنبياء فقط؟ لماذا هذا التشويه والحذف الذي إن كان عن جهل فهذه مصيبة، وأن كان عن عمد فهذه مأساة أكبر من أي مصيبة؛ لأن الجالس على كرسي مار مرقس يحاول تدمير عطية الله لمجرد أنه يكره كاتب هذه السطور ويبغض الأب متى المسكين، ولذلك يسعى جاهداً للبحث عن أخطاء لا وجود لها إلاَّ في عقله وحده.

ثالثاً: المسيح يجمع في شخصه ميلاده ومعموديته، ويجب أن نضيف أيضاً أنه يجمع في شخصه موته المحيي وقيامته وصعوده ومجده الإلهي. ما الذي يوحِّد كل هذه العقائد؟ هو شخص المسيح، ولذلك نحن نُولد ونُمسح ونتناول في أسرار الانضمام إلى الكنيسة: المعمودية – المسحة – الإفخارستيا.

أقنوم الكلمة يوحِّد كل العقائد في شخصه؛ لأنها إعلانات عن الخلاص:

عندما نشرت مجلة مرقس مقالة "لماذا اعتمد يسوع؟"، وكانت مقالات الأب متى المسكين "أعياد الظهور الإلهي" قد كتبت تباعاً. وضعني الأنبا شنودة في قائمة المطرودين. هذا ما سمعته بنفسي ولم يكن مزاحاً وقفشات. كانت المسألة هي مسألة وقت لا غير. لكننا لا نعيش ونجاهر بالإنجيل من أجل إرضاء الناس؛ لأن الدينونة في

اليوم الأخير هي على الإيمان وليست على ما نقدمه من ذبائح الحمد والشكر للبشر.

ما الذي أعلنه الكلمة بتجسده وموته وقيامته؟

١– حقاً وبكل يقين لقد أعلن عن نفسه، وعن الآب والروح القدس.

٢– لكنه لم يكن مثل ممثلٍ على مسرح، بل كان ولا يزال "الراعي الصالح" الذي جاء لكي يجمع الخراف الضالة. كل إعلان عن ذاته كان إعلاناً عن رسوخ وبقاء العلاقة الجديدة التي جاء بها.

ما نوع هذه العلاقة؟

لم يسأل أحدٌ هذا السؤال، ربما عن سهو. لكن إذا كانت كل حياة الرب يسوع قبل ميلاده بالجسد حتى صعوده إلى السماء هي إعلانات عن الخلاص. فما هي العلاقة التي أُسِّسَت في هذه الإعلانات.

١– كان الناسوت الذي أخذه من والدة الإله هو ناسوت لا يختلف عن أجسادنا. كنا نحن فيه بسبب إتحادنا معاً في طبيعة إنسانية واحدة.

٢– لم يكن الناسوت غريباً أو خارجاً عن أقنوم الابن، بل سكن في الجسد، حلَّ بالجسد، اتخذ الجسد وجعله "أداة". كان الناسوت فيه.

٣– وفيه تحول الناسوت من الموت والفساد إلى عدم الموت وعدم الفساد وعدم الألم. هذا التحول الإرادي تم في الداخل، ولكنه تم مُعلَناً أيضاً في الخارج. ولكي يعلن الكلمة عن هذا التحول، وُلِدَ – مُسِحَ – مات – دُفِنَ – قام – ثم صعد حياً.

* وُلِدَ، فوضع أساس البداية الجديدة.
* مُسِحَ، فأسس المسحة لكي ننال فيه مسحتنا.
* مات، فقهر الموت على الصليب.
* قام، فأعلن الخلود.
* صَعِدَ، فجلس عن يمين الآب، وأعد لنا طريقاً جديداً لكي نجلس معه على

ذات عرشه الإلهي (رؤ ٣: ١٧ – ٢١).

فإذا كانت هذه علاقة تحوُّل يتم في داخل كيان الابن المتجسد، فمن هو المستفيد؟

لا يستطيع إلاَّ مكابر أو جاهل أن يقول: "كان الرب محتاجاً"، ولكن الذي يسعى إلى الشركة والإتحاد بالمسيح هو الذي يطلب هذه الشركة وهو الذي يطلب الإتحاد.

إتحاد اللاهوت بالناسوت هو أساس إتحادنا بالرب يسوع:

تحول ناسوت الرب بسبب حلول وسكنى الكلمة فيه حسب كلمات القديس أثناسيوس هو:

"الكلمة غير مائت لأنه ابن الآب غير المائت" (تجسد الكلمة ٩: ١).

فالكلمة يشترك مع الآب في ذات الصفة الأقنومية وهي "عدم الموت".

ولكن الكلمة غير المائت:

"اتخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت، حتى إنه عندما يتحد هذا الجسد بالكلمة الذي هو فوق الجميع[1] يصبح جديراً ليس فقط أن يموت عن الجميع، بل ويبقى في عدم فساد بسبب إتحاد الكلمة به" (تجسد الكلمة ٩ : ١).

إن ما تحقق في الرب يسوع، إنما يتحقق فينا نحن، وإلاَّ فَقَدَ التجسدُ غايته، ولذلك يقول أثناسيوس:

"ومن ذلك الحين فصاعداً يُمنع الفساد من أن يسري في جميع

---

(١) فوق الجميع لأن جوهره يعلو على كل المخلوقات.

البشر بنعمة القيامة من الأموات" (تجسد الكلمة ٩: ١).

علينا أن نلاحظ أن ما تم من تحول هو خاص بالجنس البشري كله وليس بالمسيحيين فقط، ولذلك فعبارة "جميع البشر" هي عن "نعمة القيامة" العامة التي أُعطيت لكل الإنسانية كلها. فلا قيامة عامة للجنس البشري خارج المسيح[١].

لقد جاء الإتحاد بما هو غير ممكن لقدرات الإنسان:

"وهكذا باتخاذه جسداً مماثلاً لجسد جميع البشر، وباتحاده بهم، فإن ابن الله عديم الفساد ألبس الجميع عدم الفساد بوعد القيامة من الأموات"، بل لقد فَقَدَ الفسادُ (سلطانه) على البشر بسبب الكلمة الذي جاء وسكن بينهم بواسطة جسده" (تجسد الكلمة ٩: ٢).

هكذا جاء التجسد بتحول تام في كيان الإنسانية كلها، وصار تجسد الكلمة هو اتحاد الكلمة بكل البشر. وقد أدرك القديس أثناسيوس أهمية هذه النقطة بالذات فقدم تشبيهاً عن دخول ملك عظيم إلى مدينة كبيرة وسكناه في أحد بيوتها. ونتيجة هذا هو حماية هذه المدينة من أي "عدو أو عصابة" (تجسد الكلمة ٩: ٣)، ويختم بقوله:

"هكذا كان الحال مع ملك الكل" (تجسد الكلمة ٩: ٣).

لقد أبطل التجسُّد فساد الموت ومنع هلاك الجنس البشري؛

"لأن الجنس البشري كان سيهلك بالتمام لو لم يكن رب الكل ومخلص الجميع ابن الله قد جاء ليضع حداً للموت" (تجسد الكلمة ٩: ٤).

---

(١) راجع مقالنا "القيامة العامة أم قيامة المسيح" منشور على هذا الموقع.

شمولية الخلاص من الفساد والقيامة للجنس البشري:

لعل ما يجب أن نختم به هذه المحاضرة هو أن التعليم القديم الذي نكاد ننساه في تصاعد المد الأصولي والتعصب هو أن المسيح ابن الله الكلمة جاء لكي يخلص الجنس البشري. ولقب الرب "محب البشر" ليس قاصراً على محبة خاصة للمسيحيين، بل محبة شاملة للجنس البشري.

هذا لا ينفي بالمرة العلاقات الخاصة مع الله الكلمة المتجسد، ولا يحول علاقة المسيح كرأس الجسد الكنيسة إلى علاقة خاصة تمنع علاقته بالخليقة.

وتبقى العلاقة الشخصية الخاصة مبنية على:

* التبني.
* نوال مجد المسيح للحياة الأبدية.
* ميراث الملكوت الأبدي.

أرجو ألاَّ يضيع هذا التحذير في خضم المشاعر الحزينة التي نشعر بها أحياناً إزاء الغبن والظلم والاحتقار الذي نعانيه يومياً.

لم تكن الوثنية في زمن الآباء أكثر رحمة من حركات التطرف، ومع ذلك لم يطوِّر الآباء بشارة الإنجيل لكي تصبح قاصرة على المؤمنين فقط.

لقد رفع المسيح حكم الموت عن الجنس البشري، ولذلك نالت البشرية فيه القيامة، وهو ما سوف ندرسه في دقة، هي ذات الدقة التي عرض القديس أثناسيوس للموضوع.